من خصائص الحرف العربي

د. سليمان لحسن و د. أحمد بو عيني / جامعة طاهري محمد بشار

الملخص:

إن دراسة الحروف بصفة عامة، تعدّ من أخصب المجالات التي لقيت عناية العلماء، والباحثين على مختلف تخصصاتهم وأتجاهاتهم؛ بما لما للحرف من قيمة في بناء المعنى؛ سواء أكان حرف مبني أم معنى، كلا الصنفين، له دور في تحديد المعنى، وفي بناء الفصاحة وقاموس الخطاب، كلّ هذه الوشائج يعدّ الحرف هو النواة الأولى لبنائها، كما أنّ لكلّ من سياق، وصفات حروف اللب، وحروف المعاني وعلامات الإعراب والبناء دوراً في تكامل معنى الخطاب المقصود بلوغه، بإضافة إلى ما تقدّمه الأساليب من معانٍ، وما يرميه اللفظ من ذلاقة بتجانس تركيبية حروفه، كل هذا تبني عليه البؤرة التي يودّ الباحث إيصالها إلى متلقي الخطاب، ويقدر ما كان اللفظ حاملاً لهذه المواصفات، بقدر ما أبان، فمتى أدركت المعنى، فقد أبنت، وأفصحت.

الكلمات المفتاحية: خصائص اللغة، أصوليون، مفسرون، بلاغيون، تماثل، انسجام، إيقاع، نبر، محل الفائدة، معتمد الفائدة، مسند، مسند إليه، دلالة، السياق، الإبدال، الإعلال، الحذف.

Abstract:

The study of letters in general, is one of the most fertile areas, which drew the attention of scientists, researchers at various specialties and attitudes; took care out what the letter of the value in the construction of meaning; whether it is built or meaning, both cultivars, has a role in determining the meaning of a character, and in the construction of eloquence the Dictionary of the speech, all of these bonds is a character is the first nucleus of the building, and each of the context, recipes building characters, and characters from the meanings and signs expressing and constructive role in the integration of the meaning of the speech is intended attainable, adding to what methods of glitter, and throwing him word of homogeneously letters combination, all of this built by the focus that would like to AlbatAaisalha recipients of speech, as it was carrying a word of this specification, as far as Aban, when I realized meaning, the daughter, and disclosed.

إن دراسة الحروف بصفة عامة، تعدّ من أخصب المجالات التي لقيت عناية العلماء، والباحثين على مختلف تخصصاتهم وأتجاهاتهم؛ من لغويين ونحويين ومفسرين وبلاغيين وأصوليين، وغيرهم كثير ممن شغلته أسرار حروف العربية، فانشغلوا بها فأبجروهم الانسجام الصوتي الكائن في تركيبية الكلم العربي، وما به من سلاسة وانسياب، وسهولة في النطق، وعذوبة في المخرج، بعداً للتفل، وسعيّاً للانسجام، إلى درجة أنّ ذوقي الأصوات أبجروهم الانسجام الكائن بين حروفها وأصواتها ومقاطعها، وصاروا يؤثرون السماع إليها على حساب غيرها من اللغات، على الرغم من كونهم جاهلين لها، وإن لم يفهموا منها شيئاً إلا حسن إيقاع، وما تستقبلها الآذان، وما تستشفه الأفتدة، وما تروق إليه النفس بهذا الصوت العجيب، ومقطع الغريب الموحين إلى نغمٍ راقٍ تستلذها النفس البشرية التواقّة إلى الجمال، وما لها من تأثير بليغ في الكيان، وزادهم جرس الصوت، وقاموس الخطاب، وما تحدّثه الصوامت، والصوائت من انسجام عجيب في إيقاع النبر الذي ترميه بعض حروفها شرارةً مشعةً، استقبلته الآذان العاشقة لحسن الصوت، بشيء من التفاضل والإيثار الذي تُوقّعه الحروف بين موجات شدّة ورخاوة، في المكان الذي يجب أن يكونه كلّ منها، وجهر وهمس، واستعلاء وسفلية، وتكرار وميل، وحذف وإثبات، وإدغام وإظهار، كلّ ذلك يحدث عفويّاً لما يكون اللفظ عربياً أصيلاً، فتجانس الحروف بهذه المعطبات الصوتية؛ الصرفية منها والنحوية، الدلالية والإيقاعية، كلّما كانت

الجملة في قالب اللغوي العربي الأصيل، فولد هذا تلاحم بين حروف ألفاظ التركيب، يتم التعرف على أصلها انطلاقاً من التلفظ بها.

يعرف ذلك حدّاقها وذوقها، فكان لعلماء اللغة جهد كبير¹ في دراسة الحروف بشكل عام؛ ما كان منه مفرداً مجرداً، أو ما كان مركباً؛ وما كان حاملاً لمعنى في ذاته أو داخل السياق، سواء أكان منها من حروف المباني، أو حروف المعاني، وإن كان للعلماء عناية خاصة لدراسات حروف المعاني، لما لها من تأثير مباشر على النواحي النحوية والدلالية والبلاغية إثباتاً وحذفاً، وما يترتب عليها من آثار فقهية حاملة لمعان لا تحدد إلا بها، أما التركيز على حروف المباني، التي تتركب منها الألفاظ، فلم تنل حظها من العناية، إذا ما قيست بالأدوات، أو ما هو معروف بحروف المعاني، وإن كان من علمائنا من صدّف في حروف المباني التي يتكوّن منه الكلم دراسات مستفيضة، تناولت هذه الحروف، واستقصى أحوالها المفضة وما يمكن أن تؤدّي به من دور في بنية اللفظ أو معناه، إلى درجة أنهم أشاروا إلى أن الحرف المباني للفظ يحمل معنى في ذاته،¹ ومجموع دلالات الحروف التي تتكوّن منها الكلمة، هي دلالتها المعجمية، وإن كانت معاني الجمل، ومن ثم الخطاب، تتجمع دلالاته بواسطة تركيبات كثيرة؛ منها معاني الحرف الذي يتألف منه اللفظ كما ذكر ذلك صاحب مقاييس اللغة، وبناء الجملة، من حيث كون الجملة يتكوّن معناها، من معتمد الفائدة ومحل الفائدة، أي مسند ومسند إليه، لأن العربية ثنائية المعنى، ثلاثية المبنى، وما لها من دور في تركيب السياق، وإن ما وصل إلينا من هذا النوع تذكره لنا كتب التراجم، وفهارس الأعلام؛ لأن معظمها يكون قد فُقد مع الزمن، أو لما تعرّض له العرب في حروبهم مع التتار "الماغول" الذين عثوا في الأرض فساداً، بإحراقهم المؤلفات الكثيرة، أو رميها في نهري دجلة والفرات، إلى درجة تغيير المياه بالخبز المذاب، الذي كانت تحمله أمات الكتب في المجالات المختلفة.

وتتعدّد معاني الحرف بما يحمله من مواقع في التركيب، فحرف النون مثلاً تترامى دلالاته، وتتعدد من حيث كونه علامة إعراب أو علامة بناء أو من حيث كونه حرف لبناء الألفاظ، ممثلاً فاء أو عين أو لام الكلمة، وما له من تأثير في بناء اللفظ من حيث المعنى، و من حيث بناء الدلالة، وما يتعرض له من حذف وإبدال، حاملاً بذلك دلالات أخرى، ففي كل حالة تضاف فيها معانٍ حذفاً وإثباتاً، وليكون البحث ذا طابع تطبيقي، سعيًا منا لقائه. لبلوغ الإفادة والاستفادة، ويرقى محتواه إلى الدرجة العلمية الأكاديمية لا بدّ من دراسته دراسة ثاقبة الحجب، بؤى لغوية، كما عرفه الأقدمون، وأرسى عليها المحدثون.

فحرف النون من الحروف الدلالة: وهي الفصاحة والخفة في الكلام، والمقصود بالدلالة لغة: حنة اللسان وطلاقة، واصطلاحاً: الاعتماد على ذلق اللسان والشفة، أي طرفيهما، وحروف الدلالة هي: "الميم، والراء، والياء، والواو، واللام، والنون"² وجمعت في قولهم "يرملون" ولخفتها لا يخلو رباعي أو خماسي منها إلا نادراً. ومخرج النون من حافة اللسان أو الخيشوم إذا كانت ساكنة أو مثقلة "مشددة" وتشاركها في هذا المخرج اللام والراء.

فالنون إذن تعطي الكلمة شحنة الفصاحة، فتقدّفها فيها، وهي من جهة المخرج، تعطيهما الخفة، دون أن تُخلّ بالنظام النطقي، لما تحمل من صفات ذاتية حفاظاً منها على الجرس العربي السليم المبني أساساً أن يُعطى كل حرف حقه في الصوت والمد والصفة، دون أن يُخلّ بالمخرج، والصفات الأخرى التي يتمّ مع به كل حرف.

وتعدّ النون من حروف الزيادة، لكونها مؤهلة أن تضيف شيئاً منها من جانب المعنى، ومن حيث الدلالة والتركيب، والحروف التي تزداد في العربية لبناء معانٍ هي: "سألتمونيها"³

كما تقذف النون التوكيد، إن كانت زائدة في الأسماء والأفعال، فهي تؤكد معنى وقوع المسند إليه على المسند كقوله تعالى { وَإِنَّكَ لَ عَلَىٰ خُطْبِ عَظِيمٍ }⁴ إنها أكّدت وقوع الفائدة على محلّها توكيداً لازماً، وهو ضرب من الاختصار تفادياً للتكرار، ثمّ إنّها - نطقاً وصوتاً - تحمل التركيز، لأن ناطقها لا بدّ أن يُركّز على النون، ويحلّث هذا الصوت للنون المشدّدة، بحسب النفس الآتي من الجوف، في موضع من الفم، ليجعله خارجاً من الأنف، وهي الغنة، فالنون بهذا التركيز أعطت الصيغة تأكيداً، صوتاً ومعنى، وذلاقة وانسجاماً وفصاحة، كما ساهمت في تركيب الصوامت.

كما تؤكد النون الفعلين المضارع والأمر، والماضي غير قابل للتوكيد، وتوكيدها الفعل أن تباشره، وذلك أن تتصل بلامه، فيبنى في هذه الصيغة الفعل على الفتح، وهو ضرب من أضرب التوكيد في المعنى نحو قوله تعالى: { وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا }⁵

أما إذا كان ورد فاصل بين لام الفعل والنون، ففي هذه الوضعية يقع حذف واجب سعيًا للانسجام الصوتي، والاقتصاد في الجهد العضلي، وإبعاداً للتنافر، حفاظاً على بلاغة اللفظ، وقاموس الخطاب، وذلك وارد في قوله تعالى: { لَتَتَرَكِبَنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ }⁶ وقوله تعالى: { ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ }⁷ فحذفت في الآيتين نون الرفع، على أثر توالي ثلاث نونات؛ نون الرفع، وهي علامة رفع المضارع، ونونا التوكيد، فوق الحذف الواجب؛ لنون الرفع، ثم حذف الواو - وهو ضمير - لعلل صرفية، كلّ ذلك وقع لبناء السلاسة والانسجام والذلاقة، هذا من حيث الصوت والإيقاع، ولكنه يقرأ أيضاً من جهة الصرف، وله علله، كما يقرأ من جهة النحو، وله علله، ومن جهة اللسانيات بمعطياتها اعتماداً على دراسة حرف بناء اللفظ، وما يحمله من صفات، وعلاقاته كامنة كاملة، تسري في اللفظ من جهتها.

وتزداد النون في الأفعال والأسماء، قاذفة الديمومة، أي المكوث والبقاء على حالة دائمة، لا تتبدّل ولا تتغيّر، يتّضح ذلك في قوله تعالى: { يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ }⁸ أي باقون على حالهم لا يكبرون، دائمون على صفة "الولدان" لا يصيرون رجالاً، وهي نعمة يمنحها الله لأهل الجنة فيتمتعون بالولدان، وهم صغار باقون على حالهم، فلا يغادرونها، فمتى ما أُجِدَ لفظ به الألف والنون الزائدة دلّ على الثبوت الدائم، والبقاء على هذه الحال، ومنها الألفاظ: شيطان أي دائم الاحتراق، في الدنيا بتأسفه برويته المؤمنين في طاعة، وفي الآخرة ببقائه الدائم في النار حالداً فيها، يرى ذلك الزمخشري في تفسيره.

وفي الأفعال ورد في سورة الرحمن تكرر حامل لمعان كثيرة في قوله تعالى { وَبِأَيِّ آيَاتِنَا رَبَّكُمَا تُكذِّبَانِ }⁹، فورود لفظ "تَكذَّبَانِ" بها جاء الضمير المتصل الألف العائد على الثقلين؛ الإنس والجان، ورد زائداً لأنه ضمير مبني على السكون في محل رفع فاعل، والنون: علامة رفع المضارع، وهي الأخرى زائدة، فزيادة الألف والنون دلّ اللفظ، أنّ الثقلين دائمون في التكذيب، فهو توكيد مزدوج، من جهة الفعل، بتشديد عينه، من وزن "فَعَّلَ" ، وأخر زيادة الألف والنون الدالين على الثبوت الدائم، فلا يكادون يغادرونه أبداً، لأنّهما لم يكفهم ما قدّم لهم من حجج وبراهين وآيات، أو ما أرسل إليهم من رسل، كلّ ذلك لم يزداهم إلا تعذّباً وإصراراً فلزمهم التكذيب، ووشّحهم قديماً وحديثاً، وخالق الثقلين أعلم بهما من نفسيهما فأوجب فيهما أنّهما "يكذبان" بصيغة المضارع الدائم من حيث الزمن، حاضراً ومستقبلاً، والدائم من جهة اللفظ، وما يحمل من ديمومة من حيث زيادة الحرفين الدالين على الثبوت الدائم اللازم في كلّ حال ومآل.

تتألف العربية من ثلاثة أقسام؛ قسمٌ تمثله الحروف الشديدة، وتجمع في قولهم: "أجدك قطبت: ومعنى كونها شديدة ذلك لأن الحبلين الصوتين يتحركان بشلّة أثناء نطق أي حرف منها، وهذه الحروف تتوزع مخارج حروفها ما بين حروف الزيادة التي يجمعها قولهم: "سألتمونيها" وحروف الإبدال المجموعة في التركيب التالي: "طال يوم أنجدته" والحروف الثابتة، وهي بقية الحروف أي ما عدا حروف الزيادة والإبدال.

وهي الحروف الشديدة هي التي تُعطي الشلّة والقوّة في نطق اللفظ تثبت على صفتها، لأن الكلم في العربية تتجاذبه الشلّة، والتوسط والرخو، وما أشبه هذا التقسيم الصامت الحرفي بالطباع لدى الإنسان، فالناس أيضا معادن؛ منهم الشديد العنيف، ومنهم المتوسط الذي تتجاذبه القوّة والشدة، فليس له منها بد، ولا يغيّر حاله إلا بالأبي، والتأني والرشد فيتحكّم تارة ويزيغ أخرى، فحاله ما بين الحليم والحلمتهم الرخو الميال ميلاً إلى كبح النفس، ويُسيره عقله، ويتحكّم فيه صبره فتقلّ كبوته فتصفو نفسه.

وهذه الخاصية تبعث الانسجام الكائن بين ألفاظ العربية، بما أن العربية تتحاشى التقاء الساكنين، فتتخلص منه إما بتحريك الحركة أو بالحذف، وكذلك الكلمة في العربية تتحاشى من حيث بناؤها أن تكون مؤلفة من قسم واحد من هذه الحروف المنتمة لقسم واحد، فمتى ما كان اللفظ مكوناً منها جميعاً سهل نطقه، وعذب سمته وراق سمعه، وارتقى تأثيره على الباطن والملتقي، وكان للفظ بيان، وللعبارة شأن، وهو ضرب العرب في كلامها، وقلمًا يغادر اللفظ العربي هذه السجية.

تتكوّن العربية من ثمانية وعشرين حرفاً، والألف ليس من ضمنها، لأنه غير قابل لحمل الصوائت أي الحركات، ولأنه لا يصلح أن يكون أصلاً، فلا يمثّل فاء الكلمة، ولا عينه ولا لامها، ولأنه لا يمكن الابتداء به لأن العرب لا تبدأ بساكن، فإن مثّل عين الكلمة فهو معل من ياء أو واو، في مثل قال وباع، أصل الألف فيهما واو وياء.

و الحروف الشديدة هي التي ينحصر جري الصوت عند تسكينها، وهي مجموعة في هذه العبارة (أجدك قطبت) منها خمسة تسمى حروف القلقة يجمعها قولنا (قطب جد)، والمقصود بالشلّة لغة القوّة، واصطلاحاً انجباس جري الصوت عند النطق بالحرف لكامل الاعتماد على المخرج.¹⁰

الحرف في اللغة هو الطرف، ومن: قولهم: "حرف الجبل" أي طرفه أي أعلاه المحلّد.¹¹ ومنه قوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْغِي دُونَ اللَّهِ عَلَىٰ حُفِّ فَيْلٍ أَصَابَهُ خَيْرٌ مُّطْمَئِنًّا بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَيْهِ وَجْهٌ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكُمْ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾¹² والحرف هو الوجه أي على وجه واحد، والحرف هو الوجه الواحد وهو أن يعبد على السراء دون الضراء، أي يؤمن بالله ما دامت حاله حسنة، فإن غيرت، وامتنحه كفر به، وذلك لشكّه وعدم طمأنينته.¹³

الظاهر أنه سمي حرفاً، لأنه طرف في الكلام كما تقدّم وأما قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْغِي دُونَ اللَّهِ عَلَىٰ حُفِّ فَيْلٍ أَصَابَهُ خَيْرٌ مُّطْمَئِنًّا بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَيْهِ وَجْهٌ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكُمْ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾¹⁴ فهو راجع إلى هذا المعنى، لأنّ الشاك كأنه على طرف من الاعتقاد وناحية منه.¹⁵

ومصطلح الحروف يطلق على حروف المباني الثمانية وعشرين التي هي أصل تراكيب الكلام، فالألفاظ كلها تبني بواسطتها، فهي بانيتها، سواء أكانت أسماء أم حروف أم أفعال، كما يطلق الحرف على ما يوصل معاني الأفعال إلى الأسماء،¹⁶ وعلى ما يدلّ بنفسه على معنى في غيره، كما فسّر ذلك في علم النحو، بأن الحرف ما دلّ على معنى في غيره.¹⁷

أما الحرف الألف الذي يمثّل الحرف التاسع والعشرين، فهو صامت، غير قادر على حمل الصوائت، فهو إذن لم يرق إلى درجة الحرفية، لعدم استيفائه شروطها، لأن كلّ حرفٍ مبنى قادر على حمل عشر حركات أي عشرة صوائت، بينما الألف لا يحمل أيّاً منها، فهو حرف لا يُبدأ به الكلام لأنّ العرب لا تبدأ بساكن، فإنّ مثّل عين الفعل أو الاسم، فهو معلنٌ من واو أو ياء أي أصلها واو أو ياء، نحو: قال أو باع، وكذا أن كان يمثّل لام الفعل أو الاسم، فهو أيضاً واو أو ياء مثل: شكّا، رمى. والحروف نوعان؛ حروف المباني، وهي حروف الهجاء، وهي الحروف التي تُبنى الألفاظ؛ الأسماء والأفعال وحروف المعنى. والثاني حروف المعاني، وهي التي توصلُ معاني الأفعال أو ما يدلّ عليها إلى الأسماء، أو لدلالاتها على المعنى، فإنّ الباء في قولك: "مررت بزيد" حرف معنى لدلالاتها على الإلصاق بخلاف الباء في: "بكر وبشر" فإنّها تدل على مبنى أي بناء المعنى الذي يدل عليه اللفظ، وكذا الهمزة في "أزيد" حرف معنى بخلافها في "أحمد" وكذا "من" في قولك "أخذت من زيد" حرف معنى بخلافه في "منوال"،¹⁸ ثمّ أطلق لفظ الحروف على المذكور في الباب بطريق التغليب، لأن بعض ما ذكر في هذا الباب أسماء مثل: كلّ ومقنن وإذا وغيرها، ولكن لمّا كان أكثرها حروفاً سمي الجمع بهذا الاسم.¹⁹

واعتماداً على ما ذكر يمكن أن يُخلَص القول بأنّ الحروف كلّها تنقسم تقسيماً ثنائياً، وآخر ثلاثياً، فالأول منهما يُشَقُّ إلى: أ. حروف المعاني: وسميت بذلك، لأنّها توصل معنى الأفعال أو ما يدلّ عليها إلى الأسماء، إذ لو لم يكن: "من وإلى" في قولك: "خرجت من البصرة إلى بغداد." لم يفهم ابتداء الحدث ومآله وغايته ونهايته، أذن فالخروج والانتهاء دلّ عليهما الحرفان "من وإلى" هما اللذان أوصلا معنى ابتداء الخروج وانتهائه.

وهذه الحروف قسيمة الأسماء والأفعال، أي تجيء مع الأسماء والأفعال لمعانٍ وتكون عوضاً عن جملٍ، وتفيد معناها بأوجز لفظ، فكّل حروف المعاني تفيد فائدتها المعنوية مع الإيجاز والاختصار، والعربية مبالغة لهما، فمتى بلغت المعنى بأجزل لفظ فقد أبت، وكنت بليغاً في التعبير عن الفكرة المراد إيصالها.

وحروف المعاني تعوض أفعالاً أو مصادر، اختصاراً وإيجازاً وإبانة:

فحروف العطف جيء بها عوضاً عن أعطف.

وحروف الاستفهام عوضت أستفهم.

وحروف النفي إنما جيء بها عوضاً عن أجدد أو أنفي.

وحروف الاستثناء جاءت عوضاً عن استثنى أو لا أقصد.

وكذلك لام التعريف نابت عن أعرف.

وحروف الجر جاءت لتنوب عن الأفعال التي بمعناها، فالباء نابت عن ألصق مثلاً.

والكاف نابت عن أشبه، وكذلك سائر حروف المعاني.²⁰

ب: حروف المباني: وهي حروف التهجي، أعني حروف الهجاء، الموضوعية لفرض التركيب، وهي ذاتها تحمل معاني، من جهة التركيب إذا أن الحرف المباني هو ذاته يحمل معاني، ويجمع معاني كل لفظ تحدّد دلالة اللفظ، وهذه الحروف تكون أصلاً إذا كانت ممثلة لحروف الأصول، وتعدّ زائدة أو مبدلة إن استوفى اللفظ حقه.²¹

الحروف الشديدة في بناء الكلم.

قسم اللغويون الحروف إلى ثلاثة أقسام: قسم تمثله الحروف الشدّة، وهي التي تعطي اللفظ قوّة وصوتا إضافيا، ليكون تأثيره على المتلقي شديدا، وكأنّ الحروف في ذاتها فيها القوي والمتوسط والرخو، تتجانس وتتلاءم فيما بينها لإخراج قاموس اللفظ الصوتي، كلّ ذلك يحدث لبناء السلاطة، والانسجام بين الحروف، فالحروف القوية الشديدة تُسهم في بناء الحرس الصوت من حيث القوة، والحرف الشديد يحدث بتحريك قوي للحبلين الصوتيين، ولا يحدث هذا إلاّ بنطق هذه الحروف، التي تُخني على الشدّة، فيقع الانسجام عن طريقه، لكون اللفظ يبنى أساسا بتكامل بين الشدّة والتوسط والرخو القائم بين توالي الحروف، فإن كان اللفظ يتكون إلاّ من قسم واحد منها، نقص منها الانسجام والسلاطة والانسحاب الذي تحدّثه هذه الفصائل بقدر تنوعها في بناء الخطاب، فالكلام الذي تتنوع فيه هذه الخصائص، يسهل نطقه، ويعذب لفظه، وتنوع صواته، فيسهل على الباث إرساله، وعلى المتلقي استقباله.

. الشلّة هي الحروف الشديدة التي ينحصر فيها جري الصوت عند تسكينها، وهي مجموعة في هذه العبارة (أجدك قطبت) منها خمسة تسمى أحرف القلقلة يجمعها قولنا: (قطب جد)، والمقصود بالشلّة لغة القوة، واصطلاحا انخساج جري الصوت عند النطق بالحرف لكمال الاعتماد على المخرج.²²

الهمزة: وهي أقوى الحروف شلّة، وأول الحروف مخرجا، من أقصى الحلق، وهي الحرف الوحيد الذي لا يشدّد، ومن خاصيته أنه يحذف ويخفف، سواء أكان أصلا أم زائدا، فيحذف وجوبا في كلّ فعل مهموز الفاء نحو: "أخذ، أمر" في الأمر "خذ. مر" وجوازا في مهموز العين: "سل. أسأل" ويثبت إن مثلا للام "اقرأ" والهمزة من الحروف الأحادية، من أجل هذه الخصائص التي تحملها الهمزة من حيث المعنى، فقد استعملت لغويا لبناء النداء والاستفهام، فإن وظفت للنداء، فلا ينادى بها إلاّ القريب دون البعيد، لأنّ مناداة البعيد يحتاج إلى مدّ الصوت، وليس في الهمزة مدّ.²³

فإن وقع المدّ فاعلم أنّهما همزتان تعلّ الثانية مدّا، أو همزة وبعدا ألفا يقلب أيضا مدّا، أما الهمزة الأحادية فلا مدّ تحمله. وإذا استعملت الهمزة في الاستفهام فإنّها تأتي لبناء معان على أوجه:

. منها أن يكون على جهل من المستفهم؛ كقولك: أقاتم زيد؟ أزيد عندك أم عمرو؟

. ومنها أن يكون إنكارا لزيد أمرك بهذا؟ أمثل عمرو يقول هذا؟ كقوله تعالى: { قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَذَرَوْهُ مِنْهُ حَرَامًا وَهَلَالًا قُلْ أَلَّهِ أَفَنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتُونَ }²⁴ وقوله: { ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الصَّانِئِينَ مِنَ الْمُجْرِمِينَ قُلْ أَلَّذِينَ فِي حَرَمِ الْأَيْمَانِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامٌ الْأُنثِيْنَ نَبِيٌّ وَيُنِي بَع لِمَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }²⁵ ومنها ما يكون توبيخا كقوله تعالى: { وَإِذْ قُلْنَا يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُمْ فَقُلْتُهُمْ هُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِكَ إِنْ تَكُنْ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ }²⁶

هذا ضرب من التوبيخ لعيسى عليه السلام في اللفظ، ولقومه في المعنى؛ لأنّ الله تعالى قد علّم أنّ هذا لم يصدر عن عيسى عليه السلام، لأنه لم يقله، لكن قال ذلك له بحضرة قومه؛ ليوبخهم على ذلك، ويكذبهم فيما قالوا.

فإن وقع الاستفهام مع النفي، كان الأسلوب على الإثبات دون النفي، أو دلّ الأسلوب على الإنكار، والاستفهام ليس كموجب النفي، فانقلب النفي والاستفهام الإنكاري إثباتا، ويلمس هذا في قوله تعالى: { أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ }²⁷ نصّ الزمخشري على أنّ معناها هو: استفهام عن انتفاء الشرح على وجه الإنكار، فأفاد إثبات الشرح وإيجابه،²⁸ ونصّ الأنبري مثل ما

نصّ عليه الزمخشري، لما شرح معنى قوله تعالى: { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ }²⁹ ب: ألم تر: معناه: الإيجاب وتعليقه أن "لم" حرف نفي، والاستفهام ليس بموجب كالنفي، فلما دخل النفي على النفي انقلب إيجاباً.³⁰

الهمزة الزائدة:

وتنقسم حروف البناء إلى ثلاثة أقسام: قسم تمثله حروف الزيادة، وهي المعبر عنها في جملة: "سألتمونها" أو "أمان" وتسهيل³¹ أي عشرة حروف، والهمزة من الزوائد، فمتى تزداد الهمزة في الصيغ؟ في أوزان العربية، لأن اللفظ العربي معرض لثلاثة أنواع من الأوزان؛ المجرد الثلاثي، فَطِهَغَفَعَلْ لَ ، فَعُلْ لَ . أما المزيد بحرف فله أيضا ثلاثة أوزان؛ أَفْعَلْ، فَاعَلْ، فَعَّلْ. والمزيد بحرفين؛ خمسة أوزان؛ افتعل، تَفَعَّلَ، تَفَاعَلْ، انفعَلَ، افْعَلَّ. والمزيد بثلاثة أحرف أوزانه؛ استفعل، افْعَلَّلْ، افْعَوَعَلْ، افْعَوَّلْ.

تزداد الهمزة في وزن من الصيغ المزيدة، فتزداد قبل فاء اللفظ؛ في الفعل والمصدر الثلاثيين، وهي همزة قطع تزداد قبل فائه؛ أفعل والمطر إفعال، وتسمى همزة التعدية، هي التي تجعل الفعل اللازم متعدياً، والمتعدي بما يتعلّى إلى مفعولين، وإن كان في الأصل متعدياً إلى مفعولين بزيادتها يتعلّى إلى ثلاثة مفاعيل.³²

وتزداد الهمزة في المزيد بحرفين على وزن افتعل زيد فيه حرفان؛ الهمزة قبل فائه والتاء بعدها، وتنقلب وصلاً بعد أن كانت قطعاً، لأن المزيد بحرفين أو ثلاثة أحرف تعل همزتهما وصلاً.

فإذا كانت فاء الفعل همزة نحو: أخذ وزمها فعل على وزن افتعل تصير "أُتخذ" وهي صيغة غير مستعملة، هي صيغة الوزن، تبدل فيها وجوبا الهمزة التي فاء الفعل تاءً وتندغم في تاء الافتعال فتصير: اتَّخذ. فيها إبدال الهمزة تاءً.³³

وهذا الوزن، وزن افتعل هو من أكثر الأوزان تعرضاً للإبدال، فمتى ما كان الفعل الثلاثي مبتدئاً الهمزة أو الواو أو الصاد أو الضاد أو الظاء أو الطاء أو دال أو الذال أو الزاي، في صيغة افتعل وجب فيه الإبدال، فهي أذن تسع أنواع من الإبدال الواجب، ولا تزداد الهمزة إلا في وزنين منها هما: افتعل، وانفعَلَ، وكلتا الهمزتين زيدت قبل فائه، والأصل فيها أنها همزة قطع صارت وصلاً لأنها في خماسي، أما قراءة الإبدال، فيعمل لسانياً، دفعاً للتنافر فمتى ما ما وَجَدَ تنافر في أية صيغة، يُتَخَصَّصُ منه لغوياً أما بالإبدال، وهي ظاهرة لغوياً يُسَعَى إليها لبناء الانسجام، حفاظاً على سلامة اللغة، وقاموسها الخطابي، تماشياً على ما ورد في القرآن العظيم، أو الحديث النبوي الشريف، أو الفصحح العربي من عصر الاستشهاد، فقد وظَّفَ القرآن لفظ "اتَّقوا" وأصلها الثلاثي وقى، لكون العربية ثلاثية المبنى، ثنائية المعنى³⁴ فتصير بالميزان الصربي على وزن "افتعل" اتقى وهي صيغة غير مستعملة صيغة الوزن، فأبدلت الواو تاءً وجوبا، ثم أدغمت في تاء الافتعال فصارت "اتَّقَى".

فإذا أرئنا نقرأ لسانياً علّة إبدال الواو تاءً ، لقلنا إن الهمزة التي بُدِّلَتْ بها اللفظة، مخرجها أقصى الحلق، أول الحروف مخرجاً، وتلاها الواو، وهو آخر الحروف مخرجاً، وهو ساكن يجب على ناطقه في هذه الوضعية، أن تكون شفثيه على شكل دائري، وبعده تأتي التاء، وهي من نطق اللسان أي من رأسه، فيقع تنافر بين هذه الحروف الثلاثة مجتمعة في صيغة بهذا الترتيب؛ وهي الهمزة مجدها الواو الساكنة، وتليها التاء، والعربية تنفر من الثقل، وتتحاشى التنافر، لذا وجب إبدال الهمزة تاءً جلباً للسلاسة والانسحاب والذلاقة والبيان، وهي الخواص التي تُبْنَى عليها العربية، الموقوف عليه نطقها، ويأتي بها قاموس الخطاب العربي، وكلّ الألفاظ التي تبدأ بالحروف التسعة وهي: حروف الإطباق الأربع "ص . ض . ط . ظ . والواو . والهمزة . دال . والذال .

والزاي . في وزن افتعل يقع فيها الإبدال وجوبا، ودفعاً للتنافر الواقع في صيغها، يبدل الحرف بما يناسبه، طردا للتنافر، تحاشيا لعسرة النطق وثقله الذي ترفضه العربية.

إن حروف المباني تبدل بعضها لبعض، لبناء الحفّة، وهي على ضربين؛ إذا وقع الإبدال بين حروف العلة " الألف والواو والياء " والهمز، فهو إعلال، وإن وقع بينها وبين حروف أخرى فهو إبدال، وكلّ صنف منهما يقع لبناء السلاسة والسهولة في النطق حفاظا على الفصاحة والذلاقة اللتين يبنى عليهما قاموس الخطاب العربي الفصيح، وكذلك حروف المعاني، توظيفها في الجملة يحدّد دلالتها ومعناها، فحرف المعنى: "هل" يكون استفهاماً، كقولك: هل خرج زيد؟ وتكون بمعنى قد التي تفيد التحقيق، إذا جاء بعدها فعل ماضٍ، كقوله تعالى: { هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّا ذُكِّرُوا }³⁵ قالوا: معناه " قد أتى " ويدخله في معنى التقرير والتوبيخ.³⁶

وتأتي "هل" بمعنى ما النافية، إذا جاءت بعدها إلّا، فتدلّ "هل" على النفي، و"إلّا" وهي هنا أداة حصر ملغاة، بطل عملها ب"هل" النافية، أفادت الجملة القصر والحصر، يتحلّى هذا المعنى في قوله تعالى: { تَأْتِيهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ أَنْتُمْ تُظُنُّونَ إِنَّمَا نَحْنُ مُنذِرُونَ }³⁷ ، ومن هذا الضرب قوله تعالى: { إِنْ هَلَّا تَيَاطَبُوا لِيَوْمِ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ } يقول اللّٰه نَسُوهُ مِنْ قُلُوبِهِمْ قَدْ جَاءَتْ رُسُلًا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فِي شَفَعَائِهِمْ أَوْ لَنَا أَوْ نَزُدُّ فَنَعْمَلُ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ لَأَسْفَرُونَ }³⁸ وكلّ هذا بمعنى ما النافية التهميش كتاب حروف المعاني³⁹

كما تدلّ "هل" على النفي، حتى إن لم يرد بعدها حرف "إلّا" يعبّر ذلك بالسياق، والمعنى المراد بلوغه، يتّضح ذلك في قوله تعالى: { ضَبَّ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنَّفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ }⁴⁰ ، أقول: كيف تبين اللغويون العرب، ومنهم الزجاجي، هذه المعاني والدلالات التي تؤدّيها "هل" ، ومن ورائها كلّ حروف المعنى والمبني، فحرف "هل" يؤدّي معنى الاستفهام في حالات، ويخرج منه ليؤدّي النفي ، فلولا اهتمام اللغويين بالسياق، ولولا إدراكهم لخطورة التركيب، وأنّ معنى الكلمة يتحدّد داخل السياق، ويختلف من سياق لآخر لغاب عنهم المعنى، ولبعدت الشقة بين الدال والمدلول، ألا ترى أن معاني الجملة في العربية؛ ينطلق معناها من معاني خبرو بناء الكلم، ثمّ معنى اللفظ ليصبّ اللفظ في معنى التركيب الموقوف بدوره تحت ازدواجية ثنائية المعنى؛ أي معتمد الفائدة ومحملها أي المسند والمسند إليه، وهذا أيضا من شأنه تحت معنى الخطاب هذا من جهة؛ والإعراب وما تحمله الألفاظ من علامات إعراب أو بناء في أواخرها، سواء أكان ظاهرة أم مقدرّة، كلّ هذه العوامل الموقوف عليها المعنى، وتتجمع عليها المعاني، كلّ قاذفٌ بسهم لبناء المعنى المراد بلوغه من الخطاب.

الهوامش والمراجع

. القرآن الكريم

¹ أحمد بن فارس بن زكريا مقييس اللغة تحقيق أنس محمد الشامي دار الحديث بالقاهرة 1429 هـ . 2008 / ص؛ 27

² محمد سعيد إسبر وبلال الجنيدي، معجم الشامل في علوم اللغة العربية ومصطلحاتها. دار العودة بيروت الطبعة الأولى 1 . 5 . 1981 ص: 495

³ عبده الراجحي التطبيق الصرفي دار المسيرة للنشر والتوزيع عمان الطبعة السادسة ت: 2007 ص: 45

- 4 سورة القلم 4
- 5 سورة الكهف 23
- 6 سورة الانشقاق 19
- 7 سورة التكاثر 8
- 8 سورة الواقعة 17
- 9 سورة الرحمن 13 - 77
- 10 محمد سعيد إسبر وبلال الجنيدى معجم الشامل في علوم اللغة العربية ومصطلحاتها نفسه ص: 541
- 11 أبو الفضل جمال الدين محمد عبد المكرم بن منظور الإفريقي لسان العرب تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد دار صادر بيروت ط: 1، المجلد 9 مادة الفاء ص: 59.
- 12 سورة الحج 11
- 13 محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري الخزرجي الأندلسي المالكي الجامع لأحكام القرآن مطبعة دار الكتب ج 12\17
- 14 سورة الحج 11
- 15 الجي الداني في حروف المعاني، تأليف حسن بن قاسم المرادي تحقيق فخرالدين قباوه، ومحمد ندم فاضل. ص: 24
- 16 الإمام علاء الدين عبد العزيز بن أحمد البخاري، كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي، دار الفكر طبعة 1 ج 2\109
- 17 الشيخ أبي بركات عبد الله بن أحمد المعروف بحافظ الدين النسفي، كشف الأسرار شرح المصنف على المنار مطبعة بولاق الطبعة الأولى، ج 1\179
- 18 محمود سعيد حروف المعاني بين دقائق النحو ولطائف الفكر، منشأة المعارف بالاسكندرية، ط: 1 ص: 12
- 19 البزدوي كشف الأسرار نفسه، ج 2\109
- 20 محمد إبراهيم عبادة، معجم المصطلحات النحو والصرف، منشأة المعارف الاسكندرية، ط 1، ص 106
- 21 ابن حاجب الرضي شرح الكافية دار الكتب العلمية بيروت، 2\5
- 22 محمد بلال إسبر وبلال الجنيدى معجم الشامل في علوم اللغة العربية ومصطلحاتها نفسه ص 541
- 23 علي بن عيسى الرماني معاني الحروف تحقيق عبد الفتاح إسماعيل شليبيدار النهضة مصر، القاهرة 1973 ص: 1
- 24 سورة يونس 59
- 25 سورة الأنعام 143
- 26 سورة المائدة 116
- 27 سورة الشرح 1
- 28 أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، مكتبة ومطبعة مصطفى البابلي الحلبي القاهرة 1968، 221. 220\4
- 29 سورة الفيل 1
- 30 ابن الأنبري، البيان في غريب إعراب القرآن ج 2\59
- 31 ابن عصفور الإشبيلي، الممتع في التصريف تحقيق فخر الدين قباوة دار العربية للكتاب ط: 5، 1403 هـ. 1983 م ج 1\201
- 32 عبده الراجحي التطبيق الصرفي دار المسيرة للنشر والتوزيع عمان الطبعة السادسة ت: 2007 ص: 39
- 33 الشيخ مصطفى الغلاييني جامع الدروس العربية المكتبة العصرية صيدا بيروت ط: 18، 1406 /1987 ج 2\120
- 34 الشيخ موفق الدين بن يعيش النحوي، شرح المفصل، عالم الكتب ج 1\84
- 35 سورة الإنسان 1
- 36 أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، كتاب حروف المعاني، قلمه وحققه د. علي توفيق أحمد دار الأمل للنشر والتوزيع الأردن، 2009، ص 24
- 37 سورة الأنعام 158
- 38 سورة الأعراف 53
- 39 أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، كتاب حروف المعاني، قلمه وحققه د. علي توفيق أحمد نفسه ص: 24
- 40 سورة الروم 28